إعادة نظر في النصر والهزيمة

علي الصراف
كاتب عراقي

(أهم من النصر هو ما تفعله به. وأهم من الهزيمة هو ما تفعله بعدها).

يمضي الاستسهال أحيانا إلى الافتراض أن هزيمة الآخر هي انتصار لك. وهذا غير صحيح. ليست كلّ هزيمة للآخر نصرا لك. كما أنه ليست كلّ هزيمة هي هزيمة فعلا. وكذلك النصر.

الأميركيون يعترفون بأنهم هزموا في حرب فيتنام. ولكن لم يمض وقت طويل حتى أصبحت الولايات المتحدة أقوى مما كانت قبل العام 1975. الفيتناميون حققوا ما بدا أنه انتصار كبير، لأنهم فازوا بالاستقلال وباستعادة وحدة بلادهم. ولكن الأمر احتاج منهم سنوات طويلة قبل أن يصبحوا قادرين على بناء بلد مستقر وإن ظل فقيرا.

أهم من النصر هو ما تفعله به. وأهم من الهزيمة هو ما تفعله بعدها.

النظر إلى النصر على أنه مجرد فرض الهزيمة على الطرف الآخر، هو في الواقع أول الطريق لتحويل النصر إلى هزيمة. وهذا ما فعلته الكثير من حركات الاستقلال الوطني التي حاربت الاستعمار، ونجحت في طرده، ولكنها لم تعرف ماذا تفعل من بعد ذلك، أو أقامت أنظمة هشة، تعجز عن تسيير القطارات في مواعيدها، أو توفير خدمات أساسية مستقرة، أو احترام حقوق المواطنين، أو غرقت في نزاعات داخلية وخارجية لا نهاية لها، أو غير ذلك من أنماط الفشل.

قد يصعب حسبان الحساب لكل شيء في خضم أي معركة. ولكن الامتناع أو التعثر في حسبان الحساب، من بعد انقضاء المعركة، هو في الواقع وصفة لكارثة تدوم طويلا.

انظر إلى العراق. لقد تحرر من الاستعمار البريطاني في العام 1958. ولكن هذا البلد ظل يتنقل من مستنقع كارثي إلى آخر، حتى أصبح الكثير من مواطنيه يتأسفون على الاستقلال نفسه، رغم أنه كان حقا من حقوقهم الطبيعية.

انظر إلى الجزائر. فهذا بلد يتخبط ولا يعرف ما الطريق الواجب الأخذ به لبناء مستقبل معقول. وعلى الرغم من موارده الطبيعية الكثيرة، فإن موارده البشرية تبدو محطمة وبلا أفق. وطبقة الحكم فيه تتصرف وكأنها طغمة لا تني تملي تصوراتها على الناس بالقهر والإهمال وفرض الأمر الواقع.

> النظر إلى النصر على أنه مجرد فرض الهزيمة على الطرف الآخر هو في الواقع أول الطريق لتحويل النصر إلى هزيمة وهذا ما فعلته الكثير من حركات الاستقلال الوطني التي حاربت الاستعمار

ومثلما حقق العراقيون "انتصارا" على بريطانيا في العام 1958، فهزموا أنفسهم به، فقد حقق الجزائريون "انتصارا" على فرنسا في العام 1962، فهزموا أنفسهم به أيضا.

الليبيون والسوريون انتهوا إلى ما هو أسوأ من مجرد الفشل في بناء دولة. إذ هدموا المجتمع نفسه.

الأسباب تتفاوت، وهي كثيرة طبعا، إلا أنها دائما ما كانت تنتهي عند طغمة تحدوها الأوهام والقناعات الأيديولوجية الراسخة رسوخ الإيمان، وتعتقد أنها هي الحقيقة التي ما بعدها حقيقة.

الذين قادوا دولة الاستقلال افتقروا إلى الرؤية الناضجة لبناء بلد على ركائز متينة. وظلوا يتناحرون على الأسس، تارة بدوافع أيديولوجية، وأخرى بدوافع انتهازية أو ضيقة الأفق.

بناء بلد ليس أصعب من بناء منزل. تحتاج أن تعرف ما لديك من موارد، وكيف توظفها. تحتاج أن ترسي الأسس، بما يكفي لتحمل ضغط الجدران عليها. وتحتاج خدمات و"بنية تحتية" تجعلها يسيرة ومستقرة، ونوافذ تطل على ما حولك، كما تحتاج نظام تشغيل قادر على فهم المتطلبات والتجاوب مع تغيرها. ومثلما أن الجدران جدران في النهاية، فآخر ما تحتاج أن تفعله هو أن تقيمها على افتراضات بعيدة عن التجرد. الجدار في أي بناء، لا يقوم إلا بتجرد يقتفي أثر التوازن والتماسك والاستقامة، وإلا فإنه سيميل ويقع.

وهناك الكثير جدا من الدول التي توفر لها النجاح بموارد محدودة، إلا أنها ضمنت لنفسها الاستقرار والتقدم لمجرد أنها أرست أسسا متينة.

الفلسفات كثيرة أيضا. ولكن أفضلها دائما هو ما يتعارف عليه المجتمع ويراه مناسبا له، ويضمن بقاء النوافذ مفتوحة.

والتحديات تأتي. وبعضها يكون خطيرا أحيانا. إلا أن مواجهتها بأسس راسخة ليس كمواجهتها من دون أسس.

بعض العواصف يمكنها أن تقتلع المنزل. إلا أنها لن تقتلع معرفتك بركائزه. كما لن تقتلع، بفضل تلك المعرفة، قدرتك على إعادة البناء.

مذهلة حقا، قدرة الولايات المتحدة في التغلب على الهزائم. مذهلة أكثر قدرتها على قلب تلك الهزائم إلى قوة. وهناك ما يبرر الافتراض، بأن المؤسسة السياسية الأميركية لا تعول كثيرا على فكرة "النصر" أو "الهزيمة". لا تأخذها بالاعتبار كما نفعل نحن من أجل النشوة أو الخذلان. النتائج الملموسة، وتدابيرها أهم من نشوة التعبير عن "النصر"، وأهم من مشاعر الخذلان في "الهزيمة".

الاكتفاء بالمشاعر، عمل من أعمال الغرائز. وهذه لا تبني ما يدوم. بل إنه ما من أحد ركض خلف غرائزه إلا وأورث لنفسه الخذلان.

غزو أفغانستان، نفسه، كان عملا من أعمال الغرائز. دافعها الرئيسي هو الانتقام من هجمات 11 سبتمبر. ولكن ها هي العاقبة. ولم يُفلح غزو العراق من بعد ذلك، للسبب نفسه.

تخطئ الولايات المتحدة كثيرا، بسبب دوافع وافتراضات نظرية وأوهام شتى قد تغذيها بعض مراكز الأبحاث المتطرفة، مثل تلك التي نظّرت لتبرير هذين الغزوين، بزعم الحاجة لإقامة أنظمة جديدة.

إلا أنها تتعلم. وتستخلص دروسا، وتبحث عن سبل لاستئناف القوة وتعويض ما ضاع من ثروات. وهذا عمل مؤسسي، يعود في جوهره إلى أنه جزء من طبيعة الأسس. وهي تقوى على الهزيمة، لأن المنزل متين، تغمره الحيوية، ونوافذه مفتوحة. بناؤها المؤسسي متين إلى درجة أنها تستطيع أن تنتخب للرئاسة أحمق أو أرعن، وقد فعلت ذلك أكثر من مرة، وتظل هي نفسها، قوية وقادرة على الاستدراك من دون أن تتغير الأسس.

حركات الاستقلال يمكنها أن تنجح، إذا ما وضعت الغرائز والانحيازات الأيديولوجية جانبا. فهذان مصدران للعمى عن الواقع وحقائقه.

لقد فات من الوقت الكثير. ولكن كيف يمكن القول لقادة الأحزاب، أو للفاعليات الاجتماعية، في العراق أو أفغانستان أو لبنان أو الجزائر، أو أي بلد زلت به القدم: تعالوا لكي نبني منزلا؟

ليس منزلا افتراضيا، بل منزلا فعليا، من حجارة وحديد وإسمنت وأنابيب ومسالك تصريف، وأساس وسقف يتحديان العواصف، وطريق، وأبواب ونوافذ، وحيث لا يمكنك أن تضع حجرا إلا في موضعه.

بناء دولة ليس أصعب من ذلك.

الانتخابات في ظل غياب نظام ديمقراطي سبب فشل التجربة اللبنانية

حسين عبدالحسين
باحث في مؤسسة الدفاع عن الديمقراطيات – واشنطن

يصنف لبنان من ضمن الدولة الفاشلة، فعلى أرضه اقترفت كافة وجميع الأخطاء، وبعد ذلك أعادت الحكومة نفس تلك الأخطاء مرارا وتكرارا. بدءا من انهيار العملة الوطنية، إلى الانكماش الاقتصادي، إلى فضائح الفساد المتعاقبة. فمن الواضح والجلي أن من يتولى دفة القيادة ليس بالشخص المناسب. وهنا تكمن المشكلة، فبالرغم من أن اللبنانيين يعتقدون أنهم في حاجة إلى قادة جدد، لكن العديد منهم غير قادر ثقافيا على الالتزام بالقادة المناسبين، وهؤلاء يقفون حائط صد أمام باقي الشعب اللبناني التواق إلى عيش حياة طبيعية.

عندما فاجأ تحالف من مرشحي المجتمع المدني العلمانيين تحالف أحزاب أقلية النخب وحزب الله في انتخابات نقابة المهندسين، والتي أجريت في أغسطس الماضي، اعتقد الكثير بوجود أمل. وتلك النقابة هي واحدة من أكبر النقابات في البلد، وتنحصر مسؤوليتها في وضع لوائح البناء. وكانت الانتخابات عبارة عن جس نبض الشارع للانتخابات البرلمانية المقرر إجراؤها العام المقبل. وبعد تلك الهزيمة المؤسسية، أبصرت المعارضة بارقة أمل. ولكن لسوء الحظ، فمن غير المرجح أن يتم إنقاذ البلد من خلال صندوق الاقتراع.

وأساس المشاكل والصعاب التي يواجها لبنان هو ذلك النظام السياسي العتيق الذي يجعل من التغيير مستحيلا. فعلى الرغم من أن الشعب اللبناني يمارس حقه في التصويت منذ زمن بعيد، إلا أن البلد لا يملك نظاما ديمقراطيا فعليا. لكي تكون لديك ديمقراطية، فأنت بحاجة إلى أمة. ولا توجد أمة موحدة في لبنان، بل اتحاد قبائل، وكل قبيلة تسعى وراء مصالحها الشخصية.

على سبيل المثال ستقوم جماعة الشيعة بالتصويت لأي شيعي على حساب أي سني كفؤ لأن الشيعة يلومون أمويي دمشق، الذين يُعتقد أنهم ينتمون إلى جماعة السنة، ويلومونهم لما حصل في معركة كربلاء عام 680، والتي قُتل خلالها إمامهم الثالث الحسين.

وفي الجانب الآخر، لا يزال المسيحيون يحملون شيئا من الضغينة تجاه الفتوحات الإسلامية في القرن السابع، ويلومون المسلمين على تدمير الحضارة الفينيقية المزدهرة ثم صبغها بالصبغة العربية والإسلامية. ولا يزال العديد من المسيحيين اللبنانيين يحملون العداء تجاه الثقافة العربية. وقد ارتبط لبنان بأوروبا الغربية منذ ميلادها في عام 1920، وخاصة فرنسا. وفي الأوساط المسيحية اللبنانية،

> لبنان لا يملك نظاما ديمقراطيا فعليا. لكي تكون لديك ديمقراطية أنت بحاجة إلى أمة ولا توجد أمة موحدة في لبنان بل اتحاد قبائل حيث كل قبيلة تسعى وراء مصالحها الشخصية

يُنظر إلى من يتحدث الفرنسية على أنه لبناني "أصيل" وليس إلى من يتحدث العربية. ولا يشعر هؤلاء بأي حرج من الحقبة الاستعمارية.

إن الشرف القبلي والأحقاد المتراكمة منذ قرون مضت، يحددان لمن يصوت العديد من اللبنانيين. حتى اللبنانيون العلمانيون وغير الطائفيين أدلوا بأصواتهم نكاية بحزب الله وأحزاب الأقليات، وليس لصالح سياسات داخلية أو خارجية محددة.

والتحدي الذي أجهض حركتين لبنانيتين سعتا من أجل التغيير، هو النظر إلى العالم المحيط من منظور الشرف القبلي، بدلا من التفكير في مصالح ملموسة وقابلة للقياس.

في عام 2005، نزلت أكثرية كاسحة إلى الشوارع وأجبرت سوريا على سحب قواتها من لبنان. وكانوا على وشك فرض استقالة الرئيس إميل لحود، الذي أصبح في ذلك الوقت الورقة التي تحمي ميليشيا حزب الله المسلحة والتي فقدت دستوريتها. لكن البطريرك الماروني الراحل نصرالله صفير، أحد أكبر مؤيدي انتفاضة 2005، عارض إجبار لحود الماروني على الاستقالة، خوفا من أن تحمل سابقة مثل هذه أخبارا سيئة للموارنة. ولم يستطع نصرالله صفير رؤية الصورة الكلية أو الغابة اللبنانية، بل ركز على الشجرة المارونية فقط.

وفي عام 2019، أخذ بشارة الراعي وهو خليفة نصرالله صفير، الملتزم بسياسة الحياد الإقليمية اللبنانية المعقولة، نفس الموقف تجاه متظاهري الصيف الماضي عندما طالبوا باستقالة الرئيس الماروني ميشال عون.

إن اللبنانيين غير قادرين على رؤية الصورة كاملة، وهم يركزون بدلا من ذلك على مصالحهم القبلية والطائفية، ومن الخطأ اعتبار تلك المصالح هي المصالح الحقيقية. وفي ظل النظام اللبناني البيزنطي الشهير للسياسة الطائفية، فإن منصب الرئاسة مخصص لماروني، ومنصب رئيس الوزراء لشخص سني وما إلى ذلك. فكيف لنظام كهذا أن يكون ديمقراطيا؟

لإصلاح البلد، على اللبنانيين مراجعة علاقاتهم الاجتماعية والدستور وإعادة كتابة الدستور بطريقة تربط الدولة بمواطنيها، بصورة فردية، بدلا من الترتيب الحالي الذي يربط الدولة بالوسطاء الطائفيين.

والشعبوية والطوائف ليست حصرا على لبنان فقط. ففي أميركا، يتمتع كل من دونالد ترامب وزعماء حركة "الاستيقاظ" اليسارية بالكثير من الأتباع المتفانين. ومع ذلك، فإن الفارق بين الولايات المتحدة ولبنان هو أن أتباع ترامب المتفانين يشكلون ثلث الجمهوريين، وهم بدورهم أقل من نصف السكان، ويشكل الجيل المستيقظ جزءا صغيرا من الناخبين الأميركيين، لكن الناخبين القبليين في لبنان هم الأغلبية. وطالما أن غالبية الناخبين يأخذون الأوامر من زعماء عشائرهم بدلا من مساءلتهم، فلن يتغير لبنان.

سيبقى لبنان دولة فاشلة إلى أن تحصل على أغلبية تدرك أن المسؤولين المنتخبين يجب أن يعملوا للشعب، وأن السياسة مرتبطة بمصالح الأمة بأكملها، وليست مرتبطة بشرف مجموعة أو طائفة. لكن يبدو أن طريق التغيير والإصلاح لا يزال طويلا جدا.

* سيندیکیشن بیرو

العرب

أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk